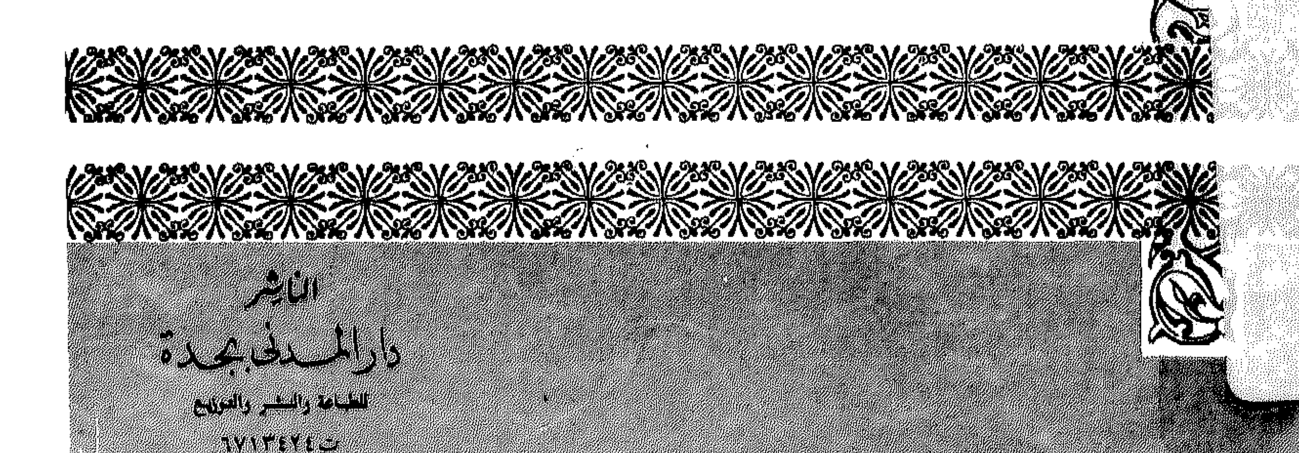
الصُّوفِيَّة وَالفُقَرَاء

شيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ – ٧٢٨ هـ

قدم لها

الدكتور محمد جميل غازي



الصُّوفيّة والفقراء

لشيخ الإسلام ابن تيمية

٦٦١ — ٧٢٨ هـ

قدم لها

الدكتور محمد جميل غازي

الناشر

دار المدني للطباعة والنشر والتوزيع
جدة - حي مشرفه شارع الصحافة
ت ٦٧١٣٤٢٤ ص ب ١٨٤٨٥ رمز بريدي ٢١١٤٢

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية – القاهرة ت ، ٨٢٧٨٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

لا ... ياشيخ الإسلام

قال ابن القيم رحمه الله ، عن شيخه
شيخ الإسلام أبى إسماعيل الهروى :
[شيخ الإسلام حبيب إلينا والحق
أحب إلينا من شيخ الإسلام]

[سبحان ربك ربّ العزة عما يصفون .

وسلام على المرسلين .

والحمد لله ربّ العالمين]

٤

- ١ -

لا أقول ، إن ابن تيمية رحمه الله ، قد استوفى موضوع رسالته هذه بحثاً ، ودراسة ، وتحقيقاً ، كما عهدناه دائماً فى بحوثه ودراساته التى يتوفر عليها .

ولعل ذلك راجع إلى ظروف معينة كان يعيشها الشيخ وهو يكتب هذه الرسالة .

فهو يقول فى آخرها : [وهذا الجواب فيه جُمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع] .

وإذا كان [هذا الموضع] — على حدّ تعبير ابن تيمية — لم يتسع للتفصيل والتطويل ، والشرح والإفاضة ، والأخذ والردّ ؛ فإن لابن تيمية فى كتبه الأخرى بحوثاً ضافية الذيول فى هذا الموضوع .

- ٢ -

غير أنه يحق لنا أن نتوقف قليلا لنناقش بعض ماجاء فى رسالة [شيخ الإسلام] حول الصوفية والتصوف ، فلقد راح يبحث عن علّة هذه التسمية وعن أصلها اللغوى .

ولكن الحيرة الشديدة أخذت عليه الطريق ، فوصل بعد لأْيٍ وتعبٍ ، إلى رأى وقف عنده وارتضاه ، فهو يقول : [وتنازعوا فى المعنى الذى أضيف إليه الصوفىّ ، فإنه من أسماء النسب ؛ كالقرشىّ والمدنىّ وأمثال ذلك .

فقيل : إنه نسبة إلى أهل الصفّة ، وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل : صُفِّى .

وقيل : نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله ، وهو أيضاً غلط ؛ فإنه لو كان كذلك ، لقيل صَفِّى .

وقيل : نسبة إلى الصفوة من خلق الله ، وهو غلط ؛ لأنه لو كان كذلك لقيل : صَفَوِى .

وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة قبيلة من العرب ، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النسَّاك .

وهذا – وإن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً ؛ لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النسَّاك ، ولأنه لو نسب النسَّاك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفية لايعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الإسلام .

وقيل – وهو المعروف – إنه نسبة إلى لبس الصوف] .

وعند هذا الرأى الأخير (المعروف) وقف ابن تيمية .

وكم كنا نودّ أن يستمر ابن تيمية – وهو الدقيق العميق – فى بحثه حتى يصل بهذه النسبة إلى أصلها الإغريقى .

ولكن ابن تيمية مافعل .

- ٣ -

صحيح أنه - رحمه الله وأثابه - توقف متعجباً عند هذا الاشتقاق ، وتساءل كما نتساءل نحن اليوم - ماهو السرّ الذى يجعل فريقاً من الناس ينتسبون إلى الصوف ، ويعتبرون هذه النسبة شعاراً ورمزاً ؟

ويجيب ابن تيمية على هذا التساؤل مستنكراً بما يرويه عن أبى الشيخ الأصبهانى بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضِّلون لباس الصوف . فقال : إن قوماً يتخيَّرون الصوف ، يقولون : إنهم يتشبهون بالمسيح ابن مريم ، وهدى نبينا أحب إلينا ، وكان النبى ﷺ يلبس القطن وغيره .

- ٤ -

لكن [ابن تيمية] لم يقف بنا وقفة عند مفهوم هذه النسبة .

فلو سلَّمنا جدلا - وهذا بعيد جدًّا - بصحة النسبة لغةً .

فما هو معناها ديناً ؟

هل معنى كلمة صوفى ، هو المرادف لكلمة تقى ، أو ولى ، أو محسن ؟

وإذا كان ذلك ، فكيف يصح لواحد من الناس أو لجماعة من الناس ، أن يطلقوا على أنفسهم واحداً من هذه الألفاظ ؟

أليس فى ذلك تزكية للنفس ، وقد نهى الله تعالى عن تزكية النفس ، فقال : ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتَّقى ﴾ [١] ؟

﴿ ألم تر إلى الذين يزكُّون أنفسهم بل الله يزكى من يشاء ﴾ [٢] ؟

- ٥ -

ثم ... ما هذا الكلام الذى ينقله شيخ الإسلام عن الصوفية ... من أنهم صديقو الأمة ؟

---

(١) النجم : ٣٢

(٢) النساء : ٤٩ .

أية صديقية هذه ؟

وأية أمة تلك ؟

ومن الصوفية كما نعلم ، ويعلم شيخ الإسلام خرجت الزندقة ، والهرطقة ، والسفسطة ، والمروق ، والفسوق ؟

ومنهم ذرّ قرن الإلحاد والفساد والحلول والاتحاد ؟

– ٦ –

وبعـــد :

فإن الصوفية هي الوباء القتال ، والداء العضال الذى منيت به هذه الأمة ، فرّقت الجماعة ، وروّجت البدعة ، وحاربت التوحيد ، وهاجمت السنة ، وأشاعت الفوضى والجهل ... باسم العبادة والذكر والعهد والطريق ... !

ولم يعد الطريق واحداً بل أصبح طرائق قدداً على رأس كل طريق شيخ يدعو إليه ، ومريدون يتبعونه ، بل يؤلهونه !!

والله يقول :

﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ [1] .

فهل من سميع أو مجيب ؟

د . محمد جميل غازى

---

(١) الأنعام : ١٥٣ .

الصُّوفِيَّة وَالفقرَاء

بسم الله الرحمن الرحيم

• مسألة عن الصوفية ، وأنهم أقسام ، والفقراء أقسام . فما صفة كل قسم ، وما يجب عليه ويستحب له أن يسلكه ؟

• الجـــواب :

الحمد لله ، أما لفظ الصوفية فإنه لم يكن مشهوراً فى القرون الثلاثة ، وإنما اشتهر التكلم به بعد ذلك . وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ ، كالإمام أحمد بن حنبل ، وأبى سليمان الدارانى وغيرهما .

وقد روى عن سفيان الثورى : أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى .

الأصل الأشتقاق لكلمة صوفى :

وتنازعوا فى المعنى الذى أضيف إليه الصوفى ، فإنه من أسماء النسب ، كالقرشى والمدنى ، وأمثال ذلك .

فقيل : إنه نسبة إلى أهل الصفة ، وهو غلط ، لأنه لو كان كذلك لقيل صُفِّى .

وقيل : نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله ، وهو أيضاً غلط ، فإنه لو كان كذلك لقيل صَفِّى .

وقيل : نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط ، لأنه لو كان كذلك لقيل صَفَوِىّ .

وقيل : نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة ، قبيلة من العرب ، كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ، ينسب إليهم النسَّاك .

وهذا إن كان موافقاً للنسب من جهة اللفظ فإنه ضعيف أيضاً ، لأن هؤلاء غير مشهورين ولا معروفين عند أكثر النسَّاك ، ولأنه لو نسب النسَّاك إلى هؤلاء ، لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باسم الصوفى لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافاً إلى قبيلة فى الجاهلية ، ولا وجود لها فى الإسلام .

المنشأ الأول للصوفية :

وقيل : وهو المعروف أنه نسبة إلى لبس الصوف ، فإنه أول ماظهرت الصوفية من البصرة ، وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ، وعبد الواحد من أصحاب الحسن .

وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ، مالم يكن فى سائر أهل الأمصار ، ولهذا كان يقال : فقه كوفى ، وعبادة بصرية .

تفضيـــل الصوف :

● وقد روى أبو الشيخ الأصبهانى بإسناده عن محمد بن سيرين : أنه بلغه أن قوماً يفضِّلون لباس الصوف ، فقال : إن قوماً يتخيَّرون الصوف ، يقولون إنهم متشبِّهون بالمسيح ابن مريم ، وهدى نبينا أحب إلينا ، وكان النبى ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاماً نحواً من هذا .

ما يحكى عن عبادة أهل البصرة :

• ولهذا غالب ما يحكى من المبالغة فى هذا الباب ، إنما هو عن عبادة أهل البصرة . مثل حكاية من مات أو غشى عليه فى سماع القرآن ونحوه ، كقصة زرارة بن إدّ قاضى البصرة ، فإنه قرأ فى صلاة الفجر : ﴿ فإذا نقر فى الناقور ﴾ فخرَّ ميتاً .

وكقصة أبى جهير الأعمى الذى قرأ عليه صالح المرى فمات ، وكذلك غيره ممن روى أنهم ماتوا باستماع قراءته ، وكان فيهم طوائف يصعقون عند سماع القرآن ، ولم يكن فى الصحابة مَنْ هذا حاله .

المنكرون على المبالغة فى العبادة :

• فلما ظهر ذلك أنكر طائفة من الصحابة والتابعين كأسماء بنت أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير ، ومحمد بن سيرين ، ونحوهم .

والمنكرون لهم مأخذان منهم من ظن ذلك تكلفاً وتصنعاً : يذكر عن محمد بن سيرين أنه قال : ما بيننا وبين هؤلاء الذين

يصعقون عند سماع القرآن ، إلا أن يقرأ على أحدهم وهو على حائط ، فإن خرَّ فهو صادق .

ومنهم : من أنكر ذلك لأنه رآه بدعة مخالفاً لما عرف من هدى الصحابة ، كما نقل عن أسماء وابنها عبد الله .

• والذى عليه جمهور العلماء : أن الواحد من هؤلاء إذا كان مغلوباً عليه لم ينكر عليه ، وإن كان حال الثابت أكمل منه ، ولهذا لما سئل الإمام أحمد عن هذا ، فقال : قرئ القرآن على يحيى بن سعيد القطان فغشى عليه ، ولو قدر أحد أن يدفع هذا عن نفسه لدفعه يحيى بن سعيد فما رأيت أعقل منه ونحو هذا .

وقد نقل عن الشافعى أنه أصابه ذلك ، وعلىّ بن الفضل ابن عياض قصته مشهورة ، وبالجملة فهذا كثير ممن لا يستراب فى صدقه .

أحوال الصحابة عند سماع القرآن :

• لكن الأحوال التى كانت فى الصحابة هى المذكورة فى

القرآن ، وهى وجل القلوب ودموع العين ، واقشعرار الجلود كما قال تعالى : ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [١] .

وقال الله تعالى : ﴿ الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ﴾ [٢] .

وقال تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آيات الرحمن خَرُّوا سجداً وبكياً ﴾ [٣] .

وقال : ﴿ وإذا سمعوا ماأُنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾ [٤] .

---

(١) الأنفال : ٢ .

(٢) الزمر : ٢٣ .

(٣) مريم : ٥٨ .

(٤) المائدة : ٨٣ .

وقال تعالى : ﴿ ويخرُّون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً ﴾ (١) . وقد يَذُمّ حال هؤلاء من فيه من قسوة القلوب والرَّين عليها ، والجفاء عن الدين ما هو مذموم وقد فعلوا .

ومنهم من يظن أن حالهم هذه أكمل الأحوال وأتمها وأعلاها . وكلا طرفى هذه الأمور ذميم .

أحوال الناس عند سماع القرآن :

بل المراتب ثلاث :

إحداها : حال الظالم لنفسه الذى هو قاسى القلب لا يلين للسماع والذكر ، وهؤلاء فيهم شبه من اليهود ، قال الله تعالى : ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله ، وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (٢) .

---

(١) الإسراء : ١٠٩ .

(٢) البقرة : ٧٤ .

وقال تعالى : ﴿ ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ﴾ [(١)] .

والثانية : حال المؤمن التقى الذى فيه ضعف عن حمل ما يرد على قلبه ، فهذا الذى يصعق صعق موت أو صعق غشى ، فإن ذلك إنما يكون لقوة الوارد وضعف القلب عن حمله .

وقد يوجد مثل هذا فيمن يفرح أو يخاف أو يحزن أو يحب أموراً دنيوية يقتله ذلك أو يمرضه أو يذهب بعقله .

ومن عبّاد الصور من أمرضه العشق أو قتله أو جننه ، وكذلك فى غيره ولا يكون هذا إلا لمن ورد عليه أمر ضعفت نفسه عن دفعه بمنزلة مايرد على البدن من الأسباب التى تمرضه أو تقتله أو كان أحدهم مغلوباً على ذلك ، فإذا كان لم يصدر منه تفريط ولا عدوان لم يكن فيه ذنب فيما أصابه فلا وجه للريبة كما لو سمع القرآن السماع الشرعى ولم يفرط بترك ما يوجب له ذلك .

---

(١) الحديد : ١٦ .

مقـــام الفناء :

• وكذلك ما يرد على القلوب مما يسمونه السكر والفناء ونحو ذلك ، من الأمور التى تغيب العقل بغير اختيار صاحبها ، فإنه إذا لم يكن السبب محظوراً لم يكن السكران مذموماً بل معذوراً ، فإن السكران بلا تمييز .

وكذلك قد يحصل ذلك بتناول السكر من الخمر والحشيشة ، فإنه يحرم بلا نزاع بين المسلمين . ومن استحل السكر من هذه الأمور فهو كافر .

وقد يحصل بسبب محبة الصور وعشقها كما قيل :

سُكرانِ سُكرُ هوى وسكر مدامة
ومتى إفاقة من به سكران

وهذا مذموم لأن سببه محظور .

الســـماع :

• وقد يحصل بسبب سماع الأصوات المطربة التى تورث مثل هذا السكر ، وهذا أيضاً مذموم ، فإنه ليس للرجل أن

يسمع من الأصوات التى لم يؤمر بسماعها ما يزيل عقله ، إذ إزالة العقل محرم .

ومتى أفضى إليه سبب غير شرعى كان محرما ، وما يحصل فى ضمن ذلك من لذة قلبية أو روحية ، ولو بأمور فيها نوع من الإيمان ، فهى مغمورة بما يحصل معها من زوال العقل ، ولم يأذن لنا الله أن نمنع قلوبنا ولا أرواحنا من لذات الإيمان ولا غيرها ، مما يوجب زوال عقولنا (١) بخلاف من زال عقله بسبب مشروع أو بأمر صادفه ، لا حيلة له فى دفعه (٢) .

● وقد يحصل السكر بسبب لا فعل للعبد فيه ، كسماع لم يقصده يهيج قاطنه ، ويحرك ساكنه ، ونحو ذلك ، وهذا لا ملام عليه فيه ، وما صدر عنه فى حال زوال عقله فهو فيه معذور ،

---

(١) أى زوالها العارض بطروء هذه اللذة ، إذ يعود بانقضاء مدتها ، ولكننا إذا علمنا أن شيئاً من ذلك يزول به العقل دائماً ، فيكون صاحبه مجنونا حرم علينا .

(٢) قوله بخلاف من زال عقله بسبب مشروع الخ . هو مقابل قوله : ومتى أفضى إليه سبب غير شرعى . الخ .

لأن القلم مرفوع عن كل من زال عقله بسبب غير محرم كالمغمى عليه والمجنون ونحوهما .

هل السكران مكلف :

• ومن زال عقله بالخمر فهل هو مكلف حال زوال عقله ؟ .

فيه قولان مشهوران .

وفى طلاق مَنْ هذه حاله نزاع مشهور . ومن زال عقله بالبنج يلحق به كما يقوله من يقوله من أصحاب الشافعى وأحمد . وقيل : يفرق بينه وبين الخمر ، لأن هذا يشتهى ، وهذا لا يشتهى . ولهذا أوجب الحد فى هذا دون هذا . وهذا هو المنصوص عن أحمد ومذهب أبى حنيفة .

عقلاء المجانين :

ومن هؤلاء من يقوى عليه الوارد حتى يصير مجنوناً ، إما بسبب خلط يغلب عليه ، وإما بغير ذلك .

ومن هؤلاء عقلاء المجانين الذين يعدون فى النسَّاك ، وقد يسمون الموطهين .

قال فيهم بعض العلماء : هؤلاء قوم أعطاهم الله عقولا وأحوالا ، فسلب عقولهم وأسقط أحوالهم ، وأبقى مافرض لما سلب .

فهذه الأحوال التى يقترن بها الغشى أو الموت أو الجنون أو السكر أو الفناء ، حتى لا يشعر بنفسه ونحو ذلك . إن كانت أسبابها مشروعة وصاحبها صادقاً عاجزاً عن دفعها كان محموداً على مافعله من الخير ، وما ناله من الإيمان معذوراً فيما عجز عنه وأصابه بغير اختياره ، وهم أكمل ممن لم يبلغ منزلتهم لنقص إيمانهم ، ونحو ذلك من الأسباب ، التى تتضمن ترك مايحبه الله أو فعل ما يكرهه الله .

• ولكن من لم يزل عقله مع أنه قد حصل له من الإيمان ما حصل لهم ، أو مثله أو أكمل منه ، فهو أفضل منهم [(١)] .

وهذه حال الصحابة رضى الله عنهم وهو حال نبينا ﷺ ، فإنه أسرى به إلى السماء وأراه الله ما أراه ، وأصبح كبائت لم يتغير عليه حاله ، فحاله أفضل من حال موسى ﷺ الذى خرَّ صعقاً لما تجلَّى ربه للجبل ، وحال موسى حال جليلة عليَّة فاضلة ، لكن حال محمد ﷺ أكمل وأعلى وأفضل .

• والمقصود أن هذه الأمور التى فيها زيادة فى العبادة والأحوال . خرجت من البصرة وذلك لشدة الخوف .

فإن الذى يذكرونه من خوف عتبة الغلام وعطاء السلمى وأمثالهما أمر عظيم ولا ريب أن حالهم أكمل وأفضل ممن لم يكن عنده من خشية الله ما قابلهم أو تفضل عليهم .

* * *

---

(١) المنار : هذه المرتبة الثالثة وهى العليا ولم يصرح هنا بالعدد .

الاقتصـاد فى الخوف :

ومن خاف الله خوفاً مقتصداً ، يدعوه إلى فعل مايحبه الله وترك مايكره الله ، من غير هذه الزيادة فحاله أكمل . وأفضل من حال هؤلاء وهو حال الصحابة رضى الله عنهم .

وقد روى أن عطاء السلمى رضى الله عنه رؤى بعد موته ، فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : قال لى ياعطاء أما استحييت منى أن تخافنى كل هذا ؟ أما بلغك أنى غفور رحيم ؟

البصـــرة والكوفة :

• وكذلك ما يذكر عن أمثال هؤلاء من الأحوال من الزهد والورع والعبادة ، وأمثال ذلك قد ينقل فيها من الزيادة على حال الصحابة رضى الله عنهم وعلى ما سنَّه الرسول أموراً توجب أن يصير الناس طرفين . قوم يذمون هؤلاء وينتقصونهم وربما أسرفوا فى ذلك ، وقوم يغلون فيهم ويجعلون هذا الطريق من أكمل الطرق وأعلاها .

• والتحقيق : أنهم فى هذه العبادات والأحوال مجتهدون ، كما كان جيرانهم من أهل الكوفة مجتهدين فى مسائل القضاء والإمارة ونحو ذلك ، وخرج فيهم الرأى الذى فيه من مخالفة السنة ما أنكره جمهور الناس .

• وخيار الناس من أهل الفقه والرأى فى أولئك الكوفيين على طرفين ؛ قوم يذمونهم ويسرفون فى ذمهم ، وقوم يغلون فى تعظيمهم ويجعلونهم أعلم بالفقه من غيرهم ، وربما فضَّلوهم على الصحابة ، كما أن الغلاة فى أولئك العباد قد يفضلونهم على الصحابة ، وهذا باب يفترق فيه الناس .

* * *

أفضـــل الطرق

• والصواب : للمسلم أن يعلم أن خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ﷺ ، وخير القرون القرن الذى بعث فيهم ، وأن أفضل الطرق والسبل إلى الله ما كان عليه هو

وأصحابه ، ويعلم من ذلك أن على المؤمنين أن يتقوا الله بحسب اجتهادهم ووسعهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [(١)] .

وقال ﷺ « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » .

وقال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ﴾ [(٢)] .

وإن كثيراً من المؤمنين المتقين أولياء الله قد لا يحصل لهم من كمال العلم والإيمان ماحصل للصحابة فيتقى الله ما استطاع ويطيعه بحسب اجتهاده ، فلابد أن يصدر منه خطأ إما فى علومه وأقواله ، وإما فى أعماله وأحواله ، ويثابون على طاعتهم ويغفر لهم خطاياهم ، فإن الله تعالى قال : ﴿ آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين

---

(١) التغابن : ١٦ .

(٢) البقرة : ٢٨٦ .

أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا وإليك المصير – إلى قوله – ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ﴾ (١) قال الله تعالى : قد فعلت .

• فمن جعل طريق أحد من العلماء والفقهاء ، أو طريق أحد من العبَّاد والنسَّاك أفضل من طريق الصحابة فهو مخطئ ضالّ مبتدع ، ومن جعل كل مجتهد فى طاعة أخطأ فى بعض الأمور مذموماً معيباً ممقوتاً ، فهو مخطئ ضال مبتدع .

• ثم الناس فى الحب والبغض والموالاة والمعاداة هم أيضاً مجتهدون ، يصيبون تارة ويخطئون تارة ، وكثير من الناس إذا علم من الرجل ما يحبه أحب الرجل مطلقاً ، وأعرض عن سيئاته ، وإذا علم منه ما يبغضه ، أبغضه مطلقاً وأعرض عن حسناته .

• وهذا من أقوال أهل البدع والخوارج المعتزلة والمرجئة .

---

(١) البقرة : ٢٨٥ ، ٢٨٦ .

وأهل السنة والجماعة يقولون : مادل عليه الكتاب والسنة والإجماع ، وهو أن المؤمن يستحق بوعد الله وفضله الثواب على حسناته ، ويستحق العقاب على سيئاته ، وإن الشخص الواحد يجمع فيه ما يثاب عليه وما يعاقب عليه ، وما يحمد عليه وما يذم عليه ، وما يحب منه وما يبغض منه ، فهذا هذا .

* * *

الصديقـــون :

● وإذا عرف أن منشأ التصوف كان من البصرة ، وأنه كان فيها من يسلك من طريق العبادة والزهد ماله فيه اجتهاد ، كما كان فى الكوفة من يسلك من طريق الفقه والعلم ماله فيه اجتهاد ، وهؤلاء نسبوا إلى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف فقيل فى أحدهم : صوفىّ ، وليس طريقهم مقيداً بلباس الصوف ، ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا إليه لكونه ظاهر الحال .

• ثم التصوف عندهم له حقائق وأحوال معروفة ، قد تكلموا فى حدوده وسيرته وأخلاقه .

كقول بعضهم : الصوفى من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، واستوى عنده الذهب والحجر .

التصوف : كتمان المعانى ، وترك الدعاوى ، وأشباه ذلك .

وهم يسيرون بالصوفى إلى معنى الصديق .

وأفضل الخلق بعد الأنبياء الصديقون كما قال الله تعالى : ﴿ فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ﴾ [١] .

• ولهذا ليس عندهم بعد الأنبياء أفضل من الصوفىّ ، لكن هو فى الحقيقة نوع من الصدِّيقين فهو الصدِّيق الذى اختصَّ بالزهد والعبادة على الوجه الذى اجتهدوا فيه ، فكأن

---

(١) النساء : ٦٩ .

الصدِّيقَ من أهل هذه الطريق ، كما يقال صديقو العلماء ، وصديقو الأمراء ، فهو أخص من الصديق المطلق ، ودون الصديق الكامل الصديقية من الصحابة والتابعين وتابعيهم .

فإذا قيل عن أولئك الزهَّاد والعبَّاد من البصريين : إنهم صدِّيقون ، فهو كما يقال عن أئمة الفقهاء من أهل الكوفة : إنهم صديقون أيضاً ، كل بحسب الطريق الذى سلكه من طاعة الله ورسوله بحسب اجتهاده ، وقد يكونون من أجلِّ الصديقين بحسب زمانهم ، فهم من أكمل صديقى زمانهم ، وإن الصديق فى العصر الأول أكمل منهم .

* * *

الصديقــون درجات :

● والصدِّيقون درجات وأنواع ، ولهذا يوجد لكل منهم صنف من الأحوال والعبادات حقه وأحكمه وغلب عليه ، وإن كان غيره فى غير ذلك الصنف أكمل منه ، وأفضل منه .

• ولأجل ما وقع فى كثير منهم من الاجتهاد والتنازع فيه تنازع الناس فى طريقهم فطائفة ذمَّت الصوفية والتصوُّف ، وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة .

ونقل عن طائفة من الأئمة فى ذلك من الكلام ماهو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام .

وطائفة غلت فيهم ، وادَّعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء ، وكلا طرفى قصد الأمور ذميم .

والصواب : أنهم مجتهدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله ، ففيهم السابق المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم المقتصد الذى هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطىء ، وفيهم من يذنب فيتوب أو لا يتوب ، ومن المنتسبين إليهم من هو ظالم لنفسه عاص لربه .

زنادقة التصوف :

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم ، كالحلاج مثلا ، فإن

أكثر مشايخ الطريق أنكروه وأخرجوه عن الطريق مثل الجنيد محمد سيد الطائفة وغيره ، كما ذكر ذلك الشيخ أبو عبد الرحمن السلمى فى طبقات الصوفية ، وذكره الحافظ أبو بكر الخطيب فى تاريخ بغداد .

أصنـــاف الصوفية :

● فهذا أصل التصوف ثم إنه بعد ذلك تشعب وتنوع وصارت الصوفية ثلاثة أصناف :

صوفية الحقائق ، وصوفية الأرزاق ، وصوفية الرسم .

فأما صوفية الحقائق فهم الذين وصفناهم .

وأما صوفية الأرزاق فهم الذين وقفت عليهم الوقوف كالخوانك ، فلا يشترط فى هؤلاء أن يكونوا من أهل الحقائق فإن هذا عزيز ، وأكبر أهل الحقائق لا يتصدون بلوازم الخوانك ، ولكن يشترط فيهم ثلاثة شروط :

أحدها : العدالة الشرعية بحيث يؤدون الفرائض ويجتنبون المحارم .

والثانى : التأدب بآداب أهل الطريق ، وهى الآداب الشرعية فى غالب الأوقات ، وأما الآداب البدعية الوضعية فلا يلتفت إليها .

والثالث : أن لا يكون أحدهم متمسكا بفضول الدنيا ، فأما من كان جمَّاعاً للمال ، أو كان غير متخلِّق بالأخلاق المحمودة ، ولا يتأدب بالآداب الشرعية ، أو كان فاسقاً فإنه لا يستحق ذلك .

وأما صوفية الرسم : فهم المقتصرون على النسبة فهمهم فى اللباس والآداب الوضعية ونحو ذلك ، فهؤلاء فى الصوفية بمنزلة الذى يقتصر على زى أهل العلم وأهل الجهاد ونوع ما من أقوالهم ، وأعمالهم ، بحيث يظن الجاهل حقيقة أمره ، أنه منهم وليس منهم .

* * *

إطلاق الفقير فى الكتاب والسنة :

- وأما اسم الفقير فإنه موجود فى كتاب الله وسنة

رسول الله ﷺ ، لكن المراد به من الكتاب والسنة الفقير المعادل للغنى .

والفقراء والفقر أنواع ، فمنه المسوغ لأخذ الزكاة . وضده الغنى المانع المحرم لأخذ الزكاة ، كما قال النبى ﷺ : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لقوى مكتسب » .

والغنى الموجب للزكاة غير هذا عند جمهور العلماء ، كمالك والشافعى وأحمد ، وهو ملك النصاب ، وعندهم قد يجب على الرجل الزكاة ، ويباح له أخذ الزكاة خلافاً لأبى حنيفة .

والله سبحانه قد ذكر الفقراء فى مواضع لكن ذكر الله الفقراء المستحقين للزكاة فى آية والفقراء المستحقين للفىء فى آية فقال فى الأولى : ﴿ إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم – إلى قوله – للفقراء المهاجرين الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم

الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً ﴾ (١) .

وقال فى الثانية :

﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى - إلى قوله - للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ (٢) .

* * *

الفقير الصابر والغنى الشاكر :

- وهؤلاء الفقراء قد يكون فيهم من هو أفضل من كثير

---

(١) البقرة : ٢٧١ - ٢٧٣ .

(٢) الحشر ٧ ، ٨ .

من الأغنياء ، وقد يكون من الأغنياء من هو أفضل من كثير منهم ، وقد تنازع الناس أيهما أفضل ؟ الفقير الصابر أو الغنى الشاكر ؟

والصحيح : أن أفضلهما أتقاهما ، فإن استويا فى التقوى استويا فى الدرجة ، كما قد بيناه فى غير هذا الموضع ، فإن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة لا حساب عليهم ، ثم الأغنياء يحاسبون . فمن كانت حسناته أرجح من حسنات فقير كانت درجته فى الجنة أعلى ، وإن تأخر عنه فى الدخول . ومن كانت حسناته دون حسناته كانت درجته دونه .

* * *

الزهد والفقر :

● لكن لما كان جنس الزهد فى الفقر أغلب ، صار الفقر فى اصطلاح كثير من الناس عبارة عن طريق الزهد وهو من جنس التصوف .

فإذا قيل : هذا فيه فقر ، أو ما فيه فقر ، لم يرد به عدم المال ، ولكن يراد به ما يراد باسم الصوفى من المعارف والأحوال والأخلاق والآداب ، ونحو ذلك .

الفقيــــر والصوفى :

• وعلى هذا الاصطلاح قد تنازعوا : أيهما أفضل الفقير أو الصوفى ؟

فذهب طائفة إلى ترجيح الصوفى ، كأبى حفص السهروردى ونحوه ، وذهب طائفة إلى ترجيح الفقير كطوائف كثيرين وربما يختص هؤلاء بالزوايا وهؤلاء بالخوانك ، ونحو ذلك وأكثر الناس قد رجحوا الفقر .

* * *

الأوليـــاء :

• والتحقيق : أن أفضلهما أتقاهما ، فإن كان الصوفى أتقى لله كان أفضل منه ، وهو أن يكون أعمل بما يحبه الله وأترك

لما لا يحبه فهو أفضل من الفقير ، وإن كان الفقير أعمل بما يحبه الله وأترك لما لا يحبه كان أفضل منه .

فإن استويا فى فعل المحبوب وترك غير المحبوب استويا فى الدرجة .

وأولياء الله هم المؤمنون المتقون ، سواء سمى أحدهم فقيراً أو صوفياً . أو فقيهاً أو عالماً أو تاجراً أو جندياً أو صانعاً أو أميراً أو حاكما أو غير ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴾ (١) .

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : يقول الله تعالى (٢) « من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة (٣)

---

(١) يونس : ٦٢ ، ٦٣ .

(٢) هذا الحديث تفرد البخارى بإخراجه دون مسلم ، وأصحاب السنن دون مسند أحمد أيضا ، وهو معدود من غرائب جامعه وقد طعن الأئمة فى بعض رجال سنده ، وخرجه أيضا بعض الذين يروون الضعاف والمناكير ، كابن أبى الدنيا والطبرانى بأسانيد فى كل منها مقال وله ألفاظ متقاربة ، وكتبه محمد رشيد رضا .

(٣) لفظ البخارى عن أبى هريرة « فقد آذنته بالحرب » أى أعلمته .

وما تقرَّب إلىّ عبدى بمثل ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدى يتقرَّب إلىَّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، فبى يسمع وبى يبصر وبى يبطش وبى يمشى [(١)] ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عن شىء أنا فاعله كترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولابد له منه » .

---

(١) معنى هذا أنه يصل إلى درجة الإحسان التى هى كمال الإسلام والإيمان التى فسرها النبى ﷺ فى حديث أسئلة جبريل من صحيح مسلم بقوله « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والمراد أن هذه المراقبة والحضور القلبى فى الصلاة وغيرها من ذكر الله تغلب على القلب حتى يشعر صاحبهما بأن الله الناظر إليه هو المصرف له فى جميع حركاته الظاهرة والباطنة .

وأظهر من هذا أن يقال : إن هذا من قبيل ، والله غالب على أمره ، وهو أن يصرف عنه السوء والفحشاء ، ويوفقه لما يرضيه من الأقوال والأعمال ، فبهذا التوفيق والتسخير يسمع ويبصر ويبطش ويسعى ويفكر لا بهوى النفس وشهواتها .

وهذا الحديث قد بين فيه أولياء الله المقتصدين أصحاب اليمين ، والمقربين والسابقين . فالصنف الأول الذين تقربوا إلى الله بالفرائض ، والصنف الثانى الذين تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض ، وهم الذين لم يزالوا يتقربون إليه بالنوافل حتى أحبهم .

كما قال تعالى : وهذان الصنفان قد ذكرهم الله فى غير موضع من كتابه كما قال : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات ﴾ (١) .

وكما قال الله تعالى : ﴿ إن الأبرار لفى نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف فى وجوههم نضرة النعيم * يُسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك * وفى ذلك فيلتنافس المتنافسون * ومِزَاجه من تسنيم * عيناً يشرب بها المقرَّبون ﴾ (٢) .

---

(١) فاطر : ٣٢ .

(٢) المطففين : ٢٢ – ٢٨ .

قال ابن عباس : يشرب بها المقربون صرفا ، وتمزج لأصحاب اليمين مزجاً .

وقال تعالى : ﴿ ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلا * عيناً فيها تسمى سلسبيلا ﴾ (١) .

وقال تعالى : ﴿ فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون * أولئك المقربون ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ فأما إن كان من المقربين * فَرَوْحٌ وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين ﴾ (٣) .

وهذا الجواب فيه جمل تحتاج إلى تفصيل طويل لم يتسع له هذا الموضع . والله أعلم .

﴿ تمت الرسالة ﴾

---

(١) الإنسان ١٧ ، ١٨ .

(٢) الواقعة : ٨ – ١١ .

(٣) الواقعة : ٨٨ – ٩١ .

فهرست

* * *

صف هذا الكتاب بطريقة الجمع التصويرى بمكتبة الخانجى

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية – القاهرة ت : ٨٢٧٨٥١